التطور الدلالي (المحاضرة الأولى)

د.جميلة عبيد

مفهوم التطور الدلالي :

تطور سنة من سنن الله في الكون، واللغة باعتبارها كائنًا حيًا – أو كالكائن الحي – عرضة لهذا التطور؛ "لأنها تحيا على ألسنة المتكلمين بها وهم من الأحياء، وهي لهذا تتطور وتتغير بفعل الزمن كما يتطور الكائن الحي ويتغير، وهي تخضع لما يخضع له الكائن الحي في نشأته ونموه وتطوره، وهي ظاهرة اجتماعية، تحيا في أحضان المجتمع، وتستمد كيانها منه، ومن عاداته وتقاليده، وسلوك أفراده، كما أنها تتطور بتطور هذا المجتمع، فترقى برقيه، وتنحط بانحطاطه" .[1]

يقول أحد المحدثين: " إن الحياة متجددة دائمًا، وهذا واقع أوضح من أن يحتاج إلى برهان، والفكر الذي يكيف ما يجري في الحياة ثم يحدده؛ ليكون معاني تصلح أن توضع في قوالب لغوية – هو أيضاً –دائب السبح والتقلب والتجديد بما لا حدود له، فمن الطبيعي أن تكون اللغة المعبرة عن الحياة والفكر متجددة بل مُتَوَثِّبَة التجدد؛ لتلاحق تلك الحياة وذلك الفكر في التعبير عنهما[2]."

كان للألفاظ الإسلامية نصيب كبير من التطور الدلالي، فقد أدى انتشار الإسلام إلى تطور لغوي هائل، فَجَدَّت ألفاظ وماتت ألفاظ، وتبدلت معاني بعض الألفاظ بعد أن استعيرت لمعنى جديد[3]، ودراسة تطور الألفاظ يفيد في فهم العقيدة والأحكام الشرعية فهماً صحيحاً، وهذه غاية عظيمة جدًا.

جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: " توضئوا مما مست النارُ ولو من ثور أقِط"[4]

ولقد ظن بعض الذين لم يدركوا حقيقة التطور أن الوضوء ها هنا هو وضوء الصلاة، فأوجبوا على كل من أكل شيئًا مسته النار الوضوء = (غسل الوجه واليدين، ومسح الرأس، وغسل الرجلين).

---

[1]-. رمضان عبد التواب: التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه (ط3. 1417هـ- 1997م، ص9 وينظر علي عبد الواحد وافي: علم اللغة (نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع. فبراير 2000م ،ص325

[2]- محمد حسن جبل: الاستدراك على المعاجم العربية في ضوء مئتين من المستدركات الجديدة على لسان العرب وتاج العروس. (ص35) دار الفكر العربي. بدون.

[3]- ينظر: الصاحبي لأبي الحسين أحمد بن فارس تح / السيد أحمد صقر. دار إحياء الكتب العربية. بدون تاريخ،(ص78)

[4]- مسلم (كتاب الحيض – باب الوضوء مما مست النار) (1/ 72)، وسنن الترمذي (أبواب الطهارة – ما جاء في الوضوء مما غيرت النار) (1/ 114) (الجامع الصحيح) لمحمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي. تح/ أحمد محمد شاكر وآخرون. دار إحياء التراث العربي –بيروت.

ولقد قام فريق من العلماء بالتصدي لهذا الفهم، ومن هؤلاء الإمام ابن قتيبة يقول: "وكان أكثر الأعراب لا يغسلون أيديهم، ويقولون: فَقْدُه أشدّ من ريحه، فأدَّبنا نبينا بغَسْل اليد مِمّا مَسَّت النار، يريد: الأَطْبِخَة والشّواء وقد جرى الناس بعد في كل مِصْر وكلّ ناحية على الوضوء من الزَّهَم، وأن يقولوا إذا غسلوا أيديهم قَبْل أنْ يَطْعَموا: توضَّأنا، يريدون: نظَّفْنا أيدينا من الزَّهم لنطعم بها،... ومن توضَّأ مما غيّرت النار فغَسَل وجهه ورِجْلَيْه؛ فإنَّما وقع غلَطُه في ذلك من جهة وضوئه للصلاة؛ لأنه ظنَّ أنَّ كلَّ وضوء أُمِرَ به على تلك الهيئة[5]."

فقد وقع الظن عند هؤلاء من جهة الخلط بين المعنى الشرعي الفقهي وبين المعنى العرفي الضيق لكلمة الوضوء، حيث يقتصر فيه على غسل الأيدي وحدها من أجل الطعام، فالوضوء في هذا الحديث ليس غسل الوجه واليدين والرجلين ومسح الرأس، وإنما معناه النظافة، ولهذا كانوا يقولون إذا نظفوا أيديهم فغسلوها: توضأنا

ويشير ابن تيمية إلى أهمية التطور الدلالي في فهم مراد الله ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم، فيقول: " فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ يَنْشَأُ عَلَى اصْطِلَاحِ قَوْمِهِ وَعَادَاتِهِمْ فِي الْأَلْفَاظِ ثُمَّ يَجِدُ تِلْكَ الْأَلْفَاظَ فِي كَلَامِ اللَّهِ أَوْ رَسُولِهِ أَوْ الصَّحَابَةِ فَيَظُنُّ أَنَّ مُرَادَ اللَّهِ أَوْ رَسُولِهِ أَوْ الصَّحَابَةِ بِتِلْكَ الْأَلْفَاظِ مَا يُرِيدُهُ بِذَلِكَ أَهْلُ عَادَتِهِ وَاصْطِلَاحِهِ وَيَكُونُ مُرَادُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالصَّحَابَةِ خِلَافَ ذَلِكَ. وَهَذَا وَاقِعٌ لِطَوَائِفَ.

ثانيا –خصائص التطور الدلالي:

هو التغير الذي يصيب دلالات الألفاظ مفردة أو مركبة في لغة ما عبر عصورها المختلفة، متى توافرت الدواعي أو الأسباب التي تؤدى إلى ذلك [6] .

والتطور الدلالي له سمات يتميز بها، ومن أهمها:

---

[5]- غريب الحديث لابن قتيبة (1/ 155).

[6]- في الدلالة اللغوية ،ص92، وينظر: علم الدلالة د. فريد حيدر، ص71، وفي علم الدلالة دراسة تطبيقية في شرح الأنباري للمفضليات،ص33و د. عبد الكريم محمد حسن جبل. دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية. 1997م، والبحث الدلالي في المعجمات الفقهية المتخصصة،135.

1 -أنه يسير ببطء وتَدَرُّج، [7] فلا يأتي التطور فجأة، وإنما على مراحل زمنية قد تتباعد، فيحدث أن يتطور المعنى إلى معنى آخر.

2 -أنه يحدث من تلقاء نفسه بطريق آلي لا دخل للإرادة الإنسانية فيه [8]جبري الحدوث) وأعتقد أن هذا ليس قانوناً مطرداً، فقد يحدث التطور وفقاً للإرادة الإنسانية ففي مجال الاصطلاح تجد أهل التخصص يتواضعون على فعل دلالة اللفظ، لكي يتفق مع ما يريدون منه من معنى، بحيث يتناسب مع مجال استعمال اللفظ في تخصصهم [9] .

3 -أنه جبري الظواهر، لأنه يخضع في سيره لقوانين صادقة لا يد لأحد على وقفها أو تعويضها أو تغيير ما تؤدى إليه [10] .

4- وجود علاقة بين الدلالتين الجديدة والقديمة، فترتبط الدلالتان بعلاقة، قد يكون المجاز المرسل، أو الاستعارة، أو قد تكون العلاقة لا تتجاوز توسيع الدلالة أو تضييقها.

5-أن التطور الدلالي في غالب أحواله مقيد بالزمان والمكان، فمعظم ظواهره يقتصر أثرها على بيئة معينة وعصر خاص، ولا نكاد نعثر على تطور دلالي لحق جميع اللغات الإنسانية في صورة واحدة ووقت واحد . [11]

6-أنه إذا حدث تغير دلالي في بيئة معينة، ظهر أثره في استعمال جميع أفراد هذه البيئة[12] .

---

[7]- علم اللغة د. وافي ،ص314.

[8]- المرجع السابق، ص315

[9]- علم اللغة : وافي ،ص315، 316

[10]- علم الدلالة :. فريد حيدر ،ص74

[11] - علم اللغة : وافي ،ص317، وعلم الدلالة د. حيدر ،ص74

[12]- المصدران السابقان الصفحة نفسها.